تاريخ الإرسال: 2018/05/12 تاريخ القبول:2018/09/22

التلاعب بالمصطلحات في السياسة الدولية:

حربا الخليج وأحداث الحادي عشر سبتمبر 2001 نموذجا

Pun terminolgies in the international policy Gulf wars and Eleventh Setember2001Events as a models

د. رضا دغبار
deghbarreda@gmail.com
جامعة الجزائر (01)

الملخّص

تؤدي المصطلحات في السياسة الوطنية والدولية دورا مهمّا جدّا في التأثير على الجمهور لاتخاذ قرارات سياسية معيّنة، حيث توظّف الحكومات خطابات تحمل مصطلحات كثيرة مشحونة بمفاهيم خاصّة ذات رسائل قد تكون مباشرة وقد تكون في أحيانٍ كثير مشفّرة لا يفهما إلاّ السياسيون والنخبة المثقّفة من المجتمع فللمصطلحات تأثير سحري كبير في نفوس النّاس، حيث يمكن من خلالها ربح المعارك السياسية والعسكرية والأمنية والدينية... والاجتماعية، ويبرز ذلك بشكل جلي من خلال توظيف الإدارة الأمريكية لبعض المصطلحات في حربي الخليج الثانية1991 والثالثة2003 وبعد أحداث الحادي عشر سبتمبر2001، وهذا ما يصعّب على العالم اللساني مجاراتها أو تأويلها بسبب طغيان التلاعب اللغوي والسياسي بها بغض النّظر عن احترام القواعد اللغوية.

الكلمات المفتاحية: المصطلحات، التلاعب بالمصطلحات، دور اللساني في ضبط المصطلحات الموظّفة في السياسة الدولية، حربا الخليج، أحداث 11سبتمبر2001.

ABSTRACT :

Terminologies are very important since they play a very crucial role to influence determine and affect the opinions and the ideas. They might also feign and circumvent taking decision on a particular political orientation infact, governements use meaningful speaches full of well studied terminologies some of these later are direct and other are implicit that only shrewd poligiciens and the elite are able to understand. Thus the magical impact of the terminologies on

people is so great that somany political, military, doctrinal and religious battles gave been won, for instance, the American administration used such terminologies during the Gulf wars 1991 and 2003 and also during the eleventh of september 2001 events inorder to achieve purposes. As a result, terminologies are so complexto control or interpret because of the wrong political and linguistic uses without taking any considération to the language rules.
Key Words : terminologies, pun, the Role of the terminologies, the Role of the linguist to set up the used terminologies in the international policy, Gulf war, eleventh of september 2001.

المقدّمة

لقد كانت ولا تزال المصطلحات أهم الآليات اللغوية التي يستخدمها السياسيون في خطاباتهم لتبليغ الرسائل السياسية وتحقيق أهدافهم الوطنية والدولية، سواء تعلّق الأمر بالسياسة أم الاقتصاد أم الدّين...، غير أنّ العديد من تلك المصطلحات عادة ما يكون خاضعًا للإيديولوجيا ولزوايا فكرية معيّنة، وهذا ما لفت انتباهنا في حربي الخليج الثانية1991 والثالثة2003، حيث وظّفت الإدارة الأمريكية عددا كبيرًا من المصطلحات ذات إيديولوجية ومواقف فكرية خاصّة لها أبعاد سياسية عسكرية، دينية...، لم يكن لعلماء اللسان دور في صياغتها أو ترويجها أو حتّى إبداء الرأي فيها، حيث قامت عدّة هيئات ومؤسسات وشخصيات سياسية وعسكرية وأمنية بصياغتها وترويجها في مختلف وسائل الإعلام، وهذا ما جعلنا نطرح الإشكالية الآتية: ما موقف اللساني إزاء المصطلحات الموظّفة في السياسة الدولية؟، وإلى أيّ حدّ يمكنه أن يُسهم في تحديد مفاهيمها خاصّة في ظلّ التلاعب اللغوي والسياسي بها؟ كيف وظّفت الإدارة الأمريكية المصطلحات في السياسة الدولية في حربي الخليج الثانية والثالثة وبعد أحداث 11سبتمبر2001؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال هذا البحث.

أولاً: المصطلحات بين المنظور اللساني والتوظيف السياسي

يجد اللساني نفسه في كثير من الأحيان غير قادرٍ على مجاراة ما يحيط به من المصطلحات السياسية الكثيرة جدّا التي تُتَداول في الساحتين السياسيتين الوطنية والدولية، حيث يحاول جاهدا إيجاد تفسيرات لغوية واصطلاحية منطقية ومقنعة لمفاهيمها، غير أنّه

قد يصطدم في الغالب بمصطلحات لا يستطيع سوى أخذها كما هي متداولة، أو محاولة نقدها وإعطائها مفاهيم حسب قناعته الشخصية وتوجّهاته الفكرية والسياسية وربّما الاجتماعية والدّينية، وقد يضطر إلى تبنيها أو ترجمتها ترجمة حرفية أو بالمعنى الأصلي الذي وردت به عند أصحابها خاصّة أنّ معظمها هو من إنتاج غربي خالص، صاغته دوائر سياسية ومخابراتية وعسكرية ومؤسسات فكرية وخبراء استراتيجيون ومفكّرون سياسيون غربيون في ظروف وسياقات معيّنة لتبليغ رسائل سياسية أو اقتصادية... هدفها تحقيق استراتيجيات ومخطّطات أعدّت مسبقًا فصيغت لها هذه المصطلحات بحبكة متقنة وبطريقة لا تترك مجالا للشكّ بأنّ مضامينها قد تحتمل معنى دقيقا خاصًّا، أو معانٍ كثيرة مترادفة ومتداخلة من أجل قراءتها قراءات متعدّدة ليتمّ التلاعب بها وفق ما يُراد تبليغه من رسائل وتحقيقه من سياسات وأهداف، والتي تمكّنهم من خلق جوٍ من الشكّ في نفوس المجتمعات العربية والإسلامية وليتسنّى للدول الغربية العظمى نشر أفكارها وإنجاح السيطرة أو الهيمنة الفكرية والنفسية على شعوبها، وعادة ما تكون وسائل الإعلام الغربية بأنواعها المختلفة: التلفزة، الراديو، والمجلاّت والصحف، ووسائل التواصل الاجتماعي: التويتر، الفايس بوك، واليوتيوب ذات التوجّهات الفكرية والسياسية والإيديولوجية والاقتصادية وحتّى الدّينية هي الأقدر على القيام بهذه المهمّة، وبذلك يجد اللساني نفسه محرجا في التعامل مع تلك المصطلحات التي صيغت في ثقافة وحضارة وديانة مغايرة تماما لثقافتنا وحضارتنا العربية والإسلامية، هل يقبلها كما هي مستعملة أم يحاول إضفاء عليها لمسة خاصّة به، أم يرفضها جملة وتفصيلا، ومهما يكن من أمرٍ فإنّه يجد نفسه أمام واقع لغوي معقّد تحكمه عوامل ومؤشرات كثيرة قد تكون: سياسية، اقتصادية، تاريخية، عسكرية، دينية، حضارية، وإيديولوجية غربية ليست من صنعه بل فُرضت عليه فرضًا، وأمام ضغط الواقع يحاول في أحسن الأحوال قراءتها قراءة واقعية وفق قناعاته وثقافته الشخصية مبرزًا مزاياها وعيوبها ورموزها والغاية من ترويجها في الدول العربية والإسلامية، إلاّ أنّ عمله هذا يبقى محدودا وناقصًا لأنّ إمكانياته وخياراته اللغوية لا تستطيع مجابهة أو مسايرة الإمكانيات الغربية التي عادة ما تُفرض بقوّةِ السياسةِ والاقتصادِ، والترسانةِ العسكريةِ أحيانا مثلما حدث في حربي الخليج الأولى1991 والثانية2003 على العراق، والحرب على أفغانستان بعد أحداث

11سبتمبر 2001، حيث صاغت الإدارة الأمريكية آنذاك جملة من المصطلحات التي تخدم سياستها وتوجّهاتها ومصالحها في المنطقة ففرضتها بقوّتها العسكرية وإعلامها– CNNخاصّة– الذي يشكّل إمبراطورية لا تصدّ ولا ترد مثل مصطلحات: أسلحة الدمار الشامل–التي اعترف جورج بوش الابن فيما بعد بعدم وجودها أصلاً وأنّ المعلومات المخابراتية التي وصلته كانت غير دقيقة، ومزيّفة!–، ومحور الشر وأحداث11 سبتمبر 2001 التي وظّفت لاحتلال العراق وأفغانستان ومحاولة تفكيك الدول العربية في الشرق الأوسط والشام–سوريا–، وشمال إفريقيا–ليبيا– وغيرها، وهي شبيهة بقضية المروحة مع الداي أثناء احتلال فرنسا للجزائر، بل لقد اتخذت الإدارة الأمريكية أحداث11 سبتمبر 2001 ذريعة لشيطنة العالمين العربي والإسلامي من جهة، ولاحتلال العراق وأفغانستان من جهة أخرى، وتنفيذ مخطّط النظام الدولي الجديد في المنطقة من جهة ثالثة، وهذا ما جعل نعوم تشومسكي يصف الحالة الدعائية على العراق بالمدهشة حقّا، وأنّها ستدخل التاريخ، لأنّ الولايات المتحدة الأمريكية بذلت جهودا هائلة لإقناع الرأي العام الأمريكي لوحده في العالم بأنّ صدام حسين أصبح أكثر من وحش، فهو الخطر الداهم الذي يهدّد الوجود الأمريكي ككل! وهذا كان له مفعول سحري في نفوس نصف الأمريكيين الذين صدّقوا هذه الأكذوبة واعتقدوا حقيقة بأنّ صدّام حسين تورّط شخصيا في هجمات11سبتمبر 2001[1]، ولهذا يكون اللساني ليس أمام واقع لغوي أو لساني بحت، بل يجد نفسه في حرب مصطلحات ليست من وضعه الخاص أو من وضع أكاديميات لسانية ولغوية ومصطلحية محايدة، كما يجد نفسه أيضًا أمام عددٍ هائلٍ من المصطلحات المؤدلجة أو المسيّسة والمدعومة عالميا من طرف دول عظمى وإمبراطوريات إعلامية ومالية قوية، وبذلك فإنّه يعمل جاهدا –وهو مجبر–على تقريب مضامينها للقراء باستخدام أساليبه وآلياته اللغوية المحضة كنظرية الحقول الدلالية التي تمكنه من حصر مفاهيم تلك المصطلحات التي عادة ما تشترك مع مصطلحات أخرى كالإرهاب، الإسلام فوبيا، الإسلام السياسي، الجهاد... وكأنّه أمام عملية ترجمة أو اقتراض أو استيراد من الخارج لا أكثر ولا أقل.

وهذا الأمر لا يخصّ اللساني فحسب، بل إنّ العلوم الإنسانية العربية كلّها لم تُستثنَ من ظاهرة الاقتباس والاستيراد من الخارج، فمعظم مصطلحاتها مستوردة ليست من إنتاجنا

الخاص، فقد قمنا في الغالب الأعم بنقلها أو ترجمتها حرفيا أو بالمعنى حتّى أصبحنا مدمنين على النقل دون إعمال العقل أو الاجتهاد، ودون أيّ فحصٍ أو تمحيصٍ، وأصبحنا متأثرين بما نسمع وننقله بأمانة وموضوعية، حتّى بلغ بنا الأمر إلى فقدان القدرة على تسمية الأشياء والسيطرة على الواقع، بل وعلى القدرة على التعامل معه بكفاءة، وحتّى لو أدركنا الواقع على حقيقته فإنّنا لا نصنفه حسب مقولاته الأصلية، بل نسميه بأسماء تتماشى وذلك الإدراك، بحيث نستطيع التحرّك في هامش معقول من الحرية، لأنّنا سنقوم بعملية تراكمية للمعلومات داخل مقولاته ومجالاته الخاصّة به لا بنا، الأمر الذي قد يقوي لدينا القدرة على التنبؤ بمسار هذا الواقع وتحسن قدرتنا على التعامل معه[2].

فنحن هنا كما يقول عبد الوهاب المسيري أمام عملية تفتيت لبعض المصطلحات يقوم بها الباحث وهذا ما يمكنه من تبيين حدود وتاريخ تطوّر كلّ مصطلح، في ظلّ تطوير طريقة جديدة في التعريف أطلق عليها اسم التعريف، وذلك بدراسة الحقل الدلالي لمجموعة من المصطلحات المتداخلة المتشابكة، وأهم ما يميّز هذه الطريقة هو التركيب، حيث يضع الباحث بين يديه كلَّ التعريفات المتاحة لديه ثمّ يبحث عن النقاط المشتركة بينها، وهذا ما يُطلق عليه اسمَ الرقعة المشتركة أو النموذج الكامن، ويجرّدها فيصبح هذا هو التعريف الجديد، علمًا أنّ تعدّد المصطلحات وتنوّعها وتناقضها أحيانا يحتمّ على الباحث ألا يقتصر على دراسة التعريفات المعجمية فحسب، لأنّها بسيطة لا تفي بالغرض، ولكن واجب عليه أن يتعدّى الكلمات والتعريفات ليتواصل مع الظواهر الاجتماعية والتاريخية ذاتها وهذا من شأنه أن يوسّع مجال عملية التعريف[3].

وبناءً على ذلك كلّه فإنّ الولايات المتحدة وإسرائيل تدركان تمام الإدراك أهمية المصطلحات وتسمية الأشياء والسبق إلى إشاعتهما وترويجهما في وسائل الإعلام الغربية، لأنّ حركة المصطلحات وعجلتها لا تكفّ عن الدوران وعن إنتاج وتوليد كمٍ هائلٍ من المصطلحات الخاصّة بالمشروع الصهيوني، للإحاطة بكل المتغيّرات والمواقف المستجدّة، خاصّة في ظلّ استمرار الأزمة والصراع الصهيوني العربي الإسلامي، ولذلك علينا أن نكون حريصين على إخضاع تلك المصطلحات لعملية تفكيك ثمّ إعادة تركيب لكي نتمكّن من نزع الغطاء الذي يلف المفاهيم المخفية واستجلاءها[4]، علمًا أنّ الكثير من تلك المصطلحات تأخذ بعدا

إيديولوجيا وعقائديا فالمصطلحات لا تشير إلى مدلولات خارجية فقط، ولكن تحتوي كذلك على وجهات نظر من صاغوها ورؤيتهم واجتهاداتهم أيضًا، وكلّما كانت المصطلحات ذات بعد عقائدي تخدم مصلحة فريق ما، لذلك كلّما روّجت له كلمّا ازدادت الأمور أكثر تعقيدًا، حيث تصبح قراءة المصطلحات أكثر أهمية[5]، فلهذا عادة ما يشبّه اللغويون اللغة بالمرآة التي تعكس الشؤون الاجتماعية العامّة للناطقين بها، حيث تخضع لها عقائد الأمّة وتقاليدها ومبادئها في مختلف مجالات الحياة: السياسية، التشريعية القضائية، الأخلاقية، التربوية والأسرية، والميل للحرب أو الجنوح للسلم... كلّ هذا ستظهر آثاره لا محالة في مستويات اللغة المختلفة: الصوتي، الإفرادي، التركيبي–القواعد–، والدلالي...[6] ، وبما أنّ المصطلحات جزء لا يتجزّأ من هذه اللغة فهي أيضًا عادة ما تكون مرآة عاكسة لحياة مستخدميها وظروفهم وعقائدهم...

ثانيا: اللغة والسياسة أية علاقة؟

لقد كانت السياسة ولا تزال من أهم العوامل التي تؤدي دورا بارزًا في صياغة المصطلحات وفرضها على الساحتين الوطنية والدولية، حيث يُسهم رجال السياسة في وضع الكثير من المصطلحات وشحنها بمعاني ومفاهيم تخدم استراتيجياتهم ومصالحهم في العالم ولذلك فهم يوظّفون وسائل ضخمة لترويجها في العالم منها وسائل الإعلام والاتصال التقليدية كالتلفزة والراديو والصحافة المكتوبة وكوسائل التواصل الاجتماعي المعاصرة [الفايسبوك، التويتر، واليوتيوب] للتأثير على أكبر عددٍ ممكنٍ من الجمهور، وبالتّالي فرض مفاهيمهم التي تحمل في طياتها رسائل سياسية، أو قانونية، أو عسكرية، أو تاريخية، أو دينية...نتاج أفكارهم وإيديولوجياتهم المختلفة.

إنّ العلاقة بين اللغة والسياسة علاقة وطيدة ومتلاحمة حيث يشكلان وجهين لعملة واحدة، فالسياسي يختار كلّ الإمكانات التي يضعها اللغوي بين يديه ويوظّفها مثلما شاء وفق هدف محدّد يعمل على تحقيقه، وبذلك فهو لا يولي اهتماما لرأيٍ أو موقفِ اللغوي من توظيفه لمصطلح سياسي معيّن، لأنّ السياسة كما هو معلوم فن الممكن، فالمصالح الخاصّة بالسياسي تجعله غيرَ مبالٍ بنقد وآراء اللغوي من توظيفه للمصطلحات لأنّ قوّة السياسي تكمن في قدرته على صياغتها واستعمالها في السياسة بحنكة ودهاءٍ والتي تنجح العملية

السياسية وتحقّق له مشروعه بغض النّظر تماما عن رأي اللساني فيها، حيث ينظر إليها هذا الأخير [اللساني] من حيث احترامُها للمعايير والقوانين اللغوية، وبالأخص من حيث سلامتها اللغوية، بينما ينظر إليها السياسي من حيث الغنائم السياسية والاقتصادية والعسكرية... التي يحققها لبلده بعد توظيفها في سياق معيّن، وعادة ما تكون الخيارات السياسية لتوظيف تلك المصطلحات مبنية أساسًا على منطلقات لغوية اختيرت بدقّة متناهية لأنّ اللغة تزوّد السياسيين بجملة من القواعد والحيل والاستراتيجيات اللغوية والتواصلية التي تمكنهم من التلاعب بالمصطلحات وشحنها بمفاهيم مخادعة، لأنّ كفاءات اللغة: الصوتية اللفظية، التركيبية، والدلالية تسمح للسياسيين التلاعبَ بالمفاهيم المصطلحات كيف ما شاءوا وتعطيهم حلولا وحيلاً لغوية تمكّنهم من التلاعب السياسي والقانوني ببراعة وفطنة والتلاعب بمشاعر النّاس وعواطفهم، لذلك "لا بدّ أن نضع في الاعتبار الآثار التي تعكسها اللغة السياسية على فكر الناس ومشاعرهم وسلوكياتهم"(7).

وتؤدي الدعاية Propagande دورا مميّزا في توجيه الرسائل المعدّة سلفا توجيها مقصودا بهدف التأثير على أفكار وأفعال النّاس سواء كانوا أفرادا أم جماعات بغض النّظر عن صحّة المضامين التي تحملها تلك الرسائل المشفّرة أو خطئها غير أنّ المعلومات التي تحملها تلك المضامين تتصف عادة بالإيجاز والكثافة وربّما بالنّقص وعدم الشمول حتّى تعطى لها قراءات وتفسيرات متضاربة ومختلفة وهذا يدخل في التضليل الإعلامي بمفهومه العام الذي يتميّز في الغالب بالكذب والتشويه والخداع والترميز وإخفاء الحقائق حتّى يكون تأثيرها في الرأي العام ومختلف اتجاهاته نافذا كما يكون تأثّيرها في القيادات السياسية والعسكرية فعّالاً، وذلك بتوظيفه لأحدث فنون التسويق الدعائي والسياسي وتقنيات التأثير النفسي لتحقيق أهداف استراتيجية معيّنة(8).

ولهذا فإنّ الحديث عن السياسة يعني بالضرورة الحديث عن اللغة بما فيها من مصطلحات، فهما متلازمان يقترنان بشكل تلاحمي يجعل أحدهما مرتبطًا بالآخر فاللغة ليست وسيلة للتعبير عن الأحداث السياسية فحسب، بل إنّها جزء لا يتجزّأ من تلك الأحداث السياسية ذاتها، حيث لا معنى لهذه الأخيرة من دون لغة، وللغة دور مركزي في تشكيل الأدوار السياسية والسلوك العام للمجتمع، لذلك فهي والأحداث السياسية وجهان لعملة واحدة،

يكمل كلٌّ منهما الآخر، ويحدّد كلاهما معنى الآخر[9] وممّا يزيد الوضع اللساني تعقيدا أمام التوظيف السياسي للمفاهيم والمصطلحات هو العملية المعقّدة في تعريف هذه الأخيرة (المصطلحات) في حدّ ذاتهما، حيث إنّ تعريفها بغض النّظر عن توظيفها السياسي والإيديولوجي يشير إلى التباس وإشكالات عديدة ناتجة عن تعقّد الظاهرة المصطلحية في حدّ ذاتها وتداخل أسباب وجودها من ناحية أخرى[10]، إذ تؤدي رؤية الأشخاص للمصطلحات دورا كبيرا في توجيهها وجهة خاصّة، حيث تفرض مشاريعهم الأكاديمية ومدارسهم الفكرية واختصاصاتهم ومعتقداتهم الشخصية... صعوبة حقيقية في تحديد تعريف خاص للمصطلح أو الظاهرة، وقد يتعقّد الوضع المصطلحي أكثر إذا تعلّق الأمر بالمصطلحات الفكرية ذات العلاقة المباشرة بالنشطات الاجتماعية المعاصرة، وكلّما كان الفكر سليما واضحا كلّما اتضحت معالم المصطلحات الموظّفة في موضوع معين في هذا المجال، ونفس الأمر يصدق مع وضوح معالم المصطلحات فيه[11] أمّا إذا كان المصطلح ذا أبعاد فكرية، سياسية، أو إيديولوجية، أو حضارية، أو تاريخية فإنّ الأمر يكون أكثر تعقيدا، ولذلك فليس من السهل دائما فهم المصطلحات التي تُصاغ في العالم الغربي ويروّج لها في مختلف وسائل الإعلام والدراسات والصحف وتسوّق إلينا، فالباحث يحتاج إلى معرفة دقيقة بالواقع السياسي العالمي وبالفكر السائد في الغرب عموما، وبالإيديولوجيات خاصّة في شقّها المتعلّق بالجانب العربي الإسلامي وبحاجة إلى معرفة التاريخ... لأنّ كثيرًا من المصطلحات السياسية المتعلّقة بالعالمين العربي والإسلامي تُصاغ في العالم الغربي–كما قلنا– وجذورها إيديولوجية، تاريخية ودينية ناتجة عن صراعات قديمة متعلّقة بصراعات على الأرض والدّين مثلما هو حادث في الشرق الأوسط وبالذات في فلسطين بين الفلسطينيين والصهاينة، ولعلّ توظيف الرئيس جورج بوش الابن–الذي اعتبر نفسه مبعوث الرب لتخليص البشرية من شرّ صدام حسين وإيران وأفغانستان وكوريا الشمالية– لمصطلحات دينية كثيرة في حربه على ما يُعرف في منظومته الاصطلاحية بالحرب على الإرهاب الإسلامي خير دليل على ذلك كتوظيفه لمصطلح الحرب الصليبية[12].

ومن المعلوم بالضرورة في علم السياسة أنّ القدرة على توظيف الرموز اللغوية التي تحمل الجماعات اللغوية مدلولاتها وتؤثّر في نفوسهم وحسن اختيارها، هو أساس نجاح

العملية السياسية، وهذا واضح وضوحا كبيرا في السياسة الأمريكية مثلا، حيث عادة ما تطلق وتوظّف مجموعة من التعبيرات السياسية والمصطلحات كرموز لغوية تتلاعب من خلالها بمشاعر النّاس وعواطفهم لاستمالتها وجلب تأييدها لمواقف الإدارة الأمريكية وتبرير سياساتها، ممّا يعطي لها شرعية التصرّف واتخاذ القرارات مهما كان نوعها، ويبرز ذلك بشكل جلي في التاريخ المعاصر للإدارة الأمريكية في الكثير من القرارات التي اتخذتها لشنّ هجوم أو حرب على دول مختلفة مثلما فعلت في خطابها السياسي بعد أحداث الحادي عشر سبتمبر 2001، مثل تعبيرات ومصطلحات: الحرب على الإرهاب أو ضد الإرهاب، العمليات الحربية المنخفضة الشدّة، محور الشر، والدفاع عن الحرية، وهلمّ جرا...[13]، وهو الأمر نفسه الذي قامت به أثناء ضربها للسودان قديم وغيره، والعراق في حربي الخليج سنتي1991و2003، حيث كانت تتفنّن في استغلال الأزمات التي تمرّ بها الشعوب وتتخذها كذريعة ورمز لإثارة الشعب الأمريكي والتفاته حول قائده وحكومته لتنفيذ استراتيجية الإدارة الأمريكية في اتخاذ قرار عسكري معيّن، فهي خبيرة في توظيف اللغة لإعادة تشكيل الأزمة والحدث، وذلك من خلال الانتقاء الهادف للتعبيرات والمصطلحات التي لها صدى بالغٌ في عقول ونفوس أفراد المجتمع الأمريكي[14]، وهذا ما لاحظناه بشكلٍ واضحٍ –على سبيل المثال لا الحصر– في خطابات جورج بوش الأب والابن قبيل وأثناء احتلالهما للعراق وأفغانستان بعد أحداث الحادي عشر سبتمبر 2001، حيث كان خطابهما يحمل تعبيرات ومصطلحات تفوح بمضامين الديمقراطية، الحرية وحقوق الإنسان، محاربة الأنظمة الشريرة، والإرهاب...

ولعلّ مصطلح الإسلام في حدّ ذاته أثار بلبلة ولغطًا كبيرا في الأوساط الإعلامية والسياسية والفكرية الغربية حتّى أصبح يثير ذكره الرعب والخوف بسبب خلطه بمصطلحات أخرى كالإسلام السياسي، الجهاد، الإرهاب، السلفية، السلفية الجهادية، والإسلاموفوبيا وهلمّ جرا، فالكثير من الكتّاب والمهتمّين بالحقل الديني عموما والفكر الإسلامي خصوصا في العالم الغربي لم يجعلوا حدودا فاصلة بين مصطلح الإسلام وغيرها من المصطلحات الأخرى التي تدور في فلكه أو حقله الدلالي حيث اعتبروا مفاهيم تلك المصطلحات مفاهيمَ مختلفةً بل ولقد شُحِنَ بالكثير من المعاني حتّى أصبح مرادفًا للدّين الإسلامي أو المسلمين كقولهم:

[الإسلام في الفلبين يضطهد] والإسلام [لا يقبل هذا الموقف الأخرس]، ومرادفًا للتاريخ الإسلامي كقولهم: [لم يجر مثل هذا الأمر في الإسلام]، أو مرادفًا للجهد الحضاري الذي تمّ ما بين الأندلس والهند فيما بين القرنين الأوّل والعاشر على الأقل، فيقولون عصور الإسلام وأيام الإسلام"[15]، والأخطر من ذلك اعتبار كلّ المصطلحات التي تدور في فلكه من المرادفات كالإرهاب والأصولية الإسلامية والراديكالية والحركات السياسية القتالية–التي تسمّى التنظيمات أو الحركات الإسلامية أو الإسلاموية– كالقاعدة[16] وطالبان، وداعش وغيرها من الحركات في العديد من مناطق العالم وخاصّة في بؤر التوتر الإسلامية كأفغانستان، العراق، سوريا، اليمن، باكستان، وليبيا...، والأمثلة على ذلك كثيرة جدّا، فقد وصف مايكل جرام مقدّم البرامج الحوارية في إذاعة "إم إيه إل" الأمريكية الإسلام بالمنظّمة الإرهابية وأنّ الإسلام في حرب مع أمريكا بدلا من الحركات الإسلامية، بل وقالها بصريح العبارة: نحن مع منظّمة إرهابية تُدعى الإسلام[17]، وربّما يدخل هذا التوظيف المقصود لكلمة الإرهاب مرادفا للإسلام في محاولة تغيير معنى كلمة الإسلام بجعلها في موضع الإرهاب، وهذا من شأنه تغيير نظرة العالَم الاجتماعي، وبالتّالي إحداث تحويل في هذا العالم[18]، وهذا مبني على خلفيات دينية وإيديولوجية وتاريخية عن الإسلام يجسّد محاولة بعض الغربيين خلق عدو وهمي للعالم الغربي هو الإسلام، ولعلّ اللافتة التي عُلّقت في جامعة كولورادو بعد أحداث11سبتمبر2001 خير ما يمثّل هذه النزعة العنصرية حيث كُتب عليها: "عودوا إلى بلادكم أيها العرب" "اقصفوا أفغانستان بالقنابل"، " عودوا إلى بلادكم يا زنوج الرمال"[19]، وهذا ما يُفسّر لنا تساؤل الكثير من الباحثين ووسائل الإعلام الغربية عن سبب كُره المسلمين للغرب[20] خاصّة بعد بروز تنظيم القاعدة –الذي دارت حوله وحول مَنْ وراءه، وخلفيات إنشائه شكوك كثيرة سوف يكشف عنها التاريخ في المستقبل– وإعلانه الحرب على أمريكا والغرب عموما! "فقد أدخل بوش بلاده في سلسلة حروب غير منتهية، بل هي غير قابلة لنهاية قريبة، وذلك تحت ضغط تضخيم عقدة الخوف من الإسلام وتحويلها إلى مرض عقلي يجتاح الجمهور الأمريكي[21] اسمه الإسلام فوبيا أو فوبيا الإسلام.

ثالثا: حرب المصطلحات بين العالم الغربي والعالم الإسلامي:

1-حربا الخليج الثانية والثالثة: غموض المصطلح وتشويه الحقائق.

لقد اعتبرت الإدارة الأمريكية حرب الخليج الثانية سنة 1991 حربَ تحريرٍ للكويت تنفيذا لقرارات مجلس الأمن الدولي وحفاظا على الشرعية الدولية، وأنّ حرب الخليج الثالثة 2003 حرب دولية للقضاء على ما اصطلحت عليه بالنظام الشرير في العراق بزعامة صدام حسين، فإنّ بعضًا من المحلّلين السياسيين والنقاد اعتبروها عدوانا واستعمارا جديدا للوطن العربي[22]، باسم الحفاظ على الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، أين أسلحة الدمار الشامل؟!: القوي يفرض واقعًا أولاّ ثمّ يبحث بعد ذلك عن شرعية، خلو العراق اليقيني من أسلحة الدمار الشامل يؤكّد أن الحرب لها مآرب أخرى، السؤال ما زال مطروحا بقوة: هل هي قوة الشرعية أم شرعية القوة؟[23] وبذلك فإنّ التسمية في حدّ ذاتها تطرح إشكالات مفاهيمية غاية في التعقيد، لأنّ المواثيق الدولية حدّدت بدقّة مفهومي الحرب والعدوان، لهذا فقد اعتبر محمّد حسنين هيكل أنّ الولايات المتحدة الأمريكية ضربت بالشرعية الدولية عرض الحائط، وما توظيفها في هذا العدوان للأمم المتحدة إلاّ غطاء وتبرير دولي[24] وعليه فإنّ الخلط بين المفهومين يعدُّ تعدٍّ صارخًا على الحقيقة وهو يكرّس حرب التلاعب بالمصطلحات لتحقيق الغنائم السياسية، الاقتصادية، والعسكرية...

لقد أصبحت المعركة في العالم الغربي من أجل تحقيق امتيازات ومكاسب سياسية واقتصادية وتحقيق نفوذ عالمي أو إقليمي معركةَ مصطلحات[25]، وعليه فمن يريد كسب الرهان السياسي والاقتصادي في العالم عليه التحكّم في صياغة المصطلحات ووضعها بطريقة ذكية وهادفة ثمّ الترويج لها بصورة مؤثّرة وجذابّة تدغدغ المشاعر سواء برفع شعارٍ ديني، أم عرقي، أم أخلاقي، أم تاريخي، أم اقتصادي، أم بحماية حقوق الإنسان ونشر الديمقراطية وهلمّ جرا، وعادة ما تؤدي القوّة السياسية والعسكرية والاقتصادية دورًا حاسمًا في فرض مصطلحات معيّنة، ولن يتأتّى لها ذلك إلاّ برصد أموال كبيرة جدّا وتسخير ترسانة من الإعلاميين والكتاب والسياسيين المشبّعين بال إيديولوجيا التي تضفي عليها شيئا من القداسة والهيمنة السياسية والعسكرية، ولعلّ أبرز مثال على ذلك سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في حرب الخليج الثانية على العراق التي استغلّت قناتها الإعلامية الضخمة

CNN بقوّة للترويج لأفكارها وسياستها وتبرير هذه الحرب–أو هذا العدوان الذي خالف قرارات مجلس الأمن الدولي وهيئة الأمم المتّحدة حسب الباحثة نصيرة طويل[26]– لكسب تأييد وتعاطف أفراد المجتمع الأمريكي خاصّة والرأي العام العالمي عامّة وهي حرب إعلامية تعتبر جزء لا يتجزّأ من الحربين السياسية والعسكرية، فقد سخّرت لها عددا كبيرا من الإعلاميين والسياسيين والكتاب وصيغت لها –ومصطلحات كان لها الفضل الكبير في التأثير على قبول الرأي العام الأمريكي والعالمي لسياسة أمريكا إزاء ما اصطلح عليه جورج بوش الابن محور الشر: العراق، ليبيا، إيران، وكوريا الشمالية.

لقد قامت حرب الخليج الثانية، بتدمير العراق واحتلاله، ونهب ثرواته، وقد استمرت آثارها الوخيمة إلى اليوم، حيث لم ير فيه العراق سوى الحصار والقهر والتفجيرات، عرف من خلاله الشعب العراقي ملايين القتلى والجرحى والمشرّدين والنازحين والثكلى وتثبيت الاحتلال الأمريكي للعراق ولمنطقة الخليج عموما بداعي وجود تنظيم داعش الغامض؟ ! حيث شهدت ارتفاعا كبيرا في عدد القواعد العسكرية الأمريكية ممّا أصبح يشكّل تهديدا واضحا للدول المجاورة ولاقتصاداتها وسياداتها واستقلالها[27].

ثمّ ما موقع الديمقراطية في مشروع الشرق الأوسط الجديد إذا تعلّق الأمر بالقضية الفلسطينية وحركة حماس في فلسطين التي وصلت إلى الحكم من خلال العملية الانتخابية الديمقراطية، فحوصر الشعب الفلسطيني في قطاع غزّة[28]... واستخدم منهج التعامل وفق الكيل بمكيالين.

والظاهر أنّ الغرض من توظيف ذلك العدد الهائل من المصطلحات الخاصّة بالعالم العربي والإسلامي لم تتوقّف عند حدِّ توظيفها لخدمة مشاريع الولايات المتحدة وإسرائيل، بل الأمر أعمق من ذلك بكثير، فهي تحاول استغباءنا والاستخفاف بعقولنا كعرب ومسلمين ورفضنا مطلقًا، كما يقول فاروق حسني وزير الثقافة المصري السابق: "الواضح –إذن– أنّ مهاجمينا لا يزدرون فقط حكومتنا، وإنّما يزدرون مجتمعنا بأسره وطريقتنا في العيش برمّتها جوهر الأمر أنّ رفضهم لا يقتصر فقط على ما يفعله قادتنا، وإنّما يمتدّ أيضا إلى ماهيتنا نحن"[29].

لقد كانت أحداث الحادي عشر سبتمبر 2001 –التي قيل ولا يزال يُقال حولها الكثير– منعرجا خطيرا في العلاقات الدولية عموما حيث اتخذتها الولايات المتحدة الأمريكية ذريعة لإعادة تشكيل الخريطة السياسية في الكثير من الدول خاصّة منها العربية والإسلامية في إطار ما اصطلحت عليه "النظام الدولي الجديد" و"الشرق الأوسط الكبير" و"الشرق الأوسط الجديد" ويتجلّى ذلك من خلال جملة من المصطلحات التي روّجت لها الإدارة الأمريكية في تلك الفترة وعلى رأسها الإرهاب الذي اتخذ مفهومه معانٍ كثيرةٍ مترادفة التصقت بشكل مباشر بالإسلام والمسلمين دون وضع أيّ حدٍّ فاصلٍ يميّز بين الإرهاب كآفة وظاهرة إجرامية عالمية تتعدّى الحدود والأوطانٍ والديانات، والإسلام الذي يعتبر دينًا سماويا بريئا ممّا يقترفه الأفراد من سلوكيات وأفعالٍ إجرامية وكأنّ القضية أصبحت قضية صراعٍ بين الدّين الإسلامي والديانات السماوية الأخرى كالمسيحية واليهودية مثلما صوّر ذلك صامويل هنتنغتون في كتابه صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي– ترجمة: طلعت الشايب تقديم: صلاح قنصوه، سطور، شركة مطابع لوتس بالفجالة، الطبعة الثانية، القاهرة1998 وهذا ما جعل من الإسلام عدوّا مثاليا للعالم الغربي حتّى أصبح هذا الأخير لا يميّز بين الإسلام كدين رباني والحركات الأخرى المنتسبة للإسلام كالسلفية التي تدلّ في نظرهم على الجمود والرجعية والتّطرّف، ولا يدل على جماعة إسلامية إصلاحية تاريخية مهما كان نوعها أو موقفها الشرعي، وهذا الخلط الواضح في المصطلحات لم يبق حكرا على الولايات المتحدة الأمريكية إذ تعدّاه ليشمل الكثير من بلدان العالم الغربي والأوروبي حيث وصف الرئيس الفرنسي السابق نيكولا ساركوزي حين كان وزيرا للداخلية الفرنسية السلفيين بالجمود وبسكان الكهوف والإرهابيين(30)، وقد زاد الوضع تأزّما بظهور الكثير من الحركات الثورية والمقاتلة التي تنسب إلى الإسلام أو ما يسمّى بالحركات الإسلامية الجهادية كتنظيم القاعدة وداعش وغيرهما فأطلقوا مصطلح الإسلام فوبيا للدلالة على الخوف من الإسلام وكلّ الحركات الإسلامية مهما كانت صفتها، وهذا ما أدخل العالم الغربي في حالة من الهوس والرّعب من الإسلام والمسلمين لأنّ الغاية السياسة من توظيف مثل هذه المصطلحات واضحة، حيث "هناك من يدعو إلى إعادة صياغة المفاهيم بعد تفكيكها، فالمعروف عن هذا الخطاب أنّه يسعى إلى هدم كلّ نظام، وإعادة صياغة جهاز المفاهيم بحيث يصبح

التفكيك هو السمة البارزة، تفكيك العقل لكي لا يصبح وحده المسؤول عن التفكير، وتفكيك القيم لكي لا تكون بمثابة حاجز يعيق تحقيق المصالح الشخصية والغرائز البشرية، وتفكيك النظام حتّى يمكن تمرير الأفكار الهجينة والشاذّة، وتفكيك الأمم والمجتمعات والدول حتّى تعيد تشكيلها وبناءها وصياغة قيمها من جديد[31].

يسعى أيّ خطاب سياسي إلى التأثير على أمرين: الرموز الكامنة في عقول المخاطبين من أفراد الشعب وكذا نفوسهم، لتحصل له فائدة تحقيق هدفه، فإذا أراد مثلا إبعاد النّاس وصرف عقولهم عن قضية ما فإنّه يختار لذلك اللغة والمصطلحات التي تُسهل عليه صرفهم عنها مثل: التمرد، التخريب، الخيانة، المناهضة للسلطة، قلب نظام الحكم، الجماعة المحظورة، الإرهاب، التطرّف، وهلّم جرا، أمّا إذا أراد أن يكون الشعب في صفّه فإنّه يوظّف المصطلحات الإيجابية التي تستميل قلوبهم وتستهوي عقولهم مثل: ضحايا الفقر، أو ضحايا الجهل، أو ضغوط نفسية[32]، ضحايا الإرهاب، الأياد الخارجية،...

كما جاءت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة –في عهد جورج بوش الابن– كوندوليزا رايس بمصطلحٍ آخر يدخل في منظومة المصطلحات التي صيغت لخدمة المشروع الأمريكي الإسرائيلي في منطقة الشرق الأوسط وتطبيقا للنظام الدولي الجديد بالتّالي لمصالحهما الذاتية فيها هو الفوضى الخلاّقة، وهي كما يدلّ عليها ظاهر المصطلح تشير إلى إعادة ترتيب خريطة المنطقة الشرق أوسطية كما ارتضتها الدولتان بشكل يجعل الدول العربية والإسلامية في حالة فوضى حقيقية تسودها الحروب والخلافات والاضطرابات والإرهاب والثورات، وقد تحقّق لهما ذلك بشكل كبيرٍ في كلّ من العراق وأفغانستان وسوريا وليبيا واليمن والسودان–الذي انقسم إلى دولتين: سودان الشمال وسودان الجنوب –، وبدرجة أقل في تونس ومصر اللتين تجنّبتا الانشقاق والحرب والانقسام، فقد كانت الفوضى الخلاقة آلية من آليات إعادة رسم خريطة المنطقة في إطار النظام الدولي الجديد والشرق الأوسط الجديد –والشرق الأوسط الكبير– الذي من أهم مفاهيمه العملية جعل الدول العربية دويلات لا قيمة ولا وزن لها أمام الكيان الصهيوني الذي سيصبح الدولة العظمى الوحيدة في المنطقة ولعلّ دعوة الرئيس جورج بوش الأب سنة1991 إلى قيام نظام دولي جديد تحقّقت أركانه في عهد الرئيس جورج بوش الابن مباشرة بعد أحداث الحادي عشر سبتمبر 2001، حيث

اتخذ شعاره الشهير "إمّا أن تكون مع أمريكا وإمّا مع الإرهاب وعلى الأطراف الدولية الاختيار"[33] أي "من ليس معنا فهو ضدّنا".

وهذا الموقف له ما يبرّره في فكر جورج بوش الابن وعقيدته حيث أعلن حربه المقدّسة على الإرهاب في13سبتمبر2001 من الكاتدرائية الوطنية في أعظم قداس حضرته شخصيات أمريكية مرموقة جدا منها رؤساء سابقون[34] حيث قال: "إذا أردتم الاطلاع على مفهومي للسياسة الخارجية فاقرؤوا كتاب ناتان شارانسكي فإنّه سيساعدكم على فهم الكثير من القرارات التي اتخذت والتي قد تتّخذ"، وهذا القول مأخوذ من كتاب قضية الديمقراطية لناتان شارانسكي وزير شؤون يهود الشتات الإسرائيلي في عهد أرييل شارون والذي استقال من حكومته عام2005 حيث لم يكن راضيا بانسحاب الجيش الإسرائيلي من قطاع غزّة حينذاك[35].

أمّا فكرة إعادة تقسيم الشرق الأوسط فنجدها قبل جورج بوش الابن عند زبيغنو بريجنسكي أثناء اكتشاف النفط في تلك المنطقة وما يحيط بها في بحر قزوين... ثمّ عند كيسينجر الذي كان يهدّد باحتلال منابع النفط في الشرق الأوسط، والذي اقترح صراحة تقسيم المنطقة بشكل عنقودي عُرف هذا التقسيم فيما بعد بمشروع كيسينجر لتقسيم المنطقة، وعاد جورج بوش الأب ليطرح تنفيذ هذه الفكرة من جديد معلنا عن تأسيس النظام الدولي الجديد بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية–في ظلّ انسحاب القطب الشيوعي بزعامة الاتحاد السوفيتي للأسباب المعروفة–، فجاء أدراجه ابنه ليوظّف أحداث11 سبتمبر2001 ليعيد تبني فكرة والده في إعادة رسم وتشكيل خريطة الشرق الأوسط من جديد[36].

فقد استعمل ضابط المخابرات البريطاني توماس غورن مصطلح "الشرق الأوسط" لأوّل مرّة منذ سنة1900 في معرض تنبيهه لبريطانيا من الخطر الروسي على مصالحها في الهند، ثمّ استخدمه ثانية الضابط البحري الأمريكي [ألفرد تيير ماهان] سنة1902 ليحدّد من خلاله المنطقة المحصورة بين شبه الجزيرة العربية والهند، فاشتمل المصطلح بذلك كلاّ من تركيا وإيران وبلدان الخليج العربي[37].

ومن ذلك الوقت استعمل مصطلح الشرق الأوسط في الدوائر الرسمية الغربية وفي وسائل الإعلام الغربية للدلالة على تلك المنطقة الجغرافية من العالم، ومن خلال هذا التحديد

نفهم أنّ شعوب تلك المنطقة يربط شعوبها الرابط الديني والعقيدة الإسلامية بالرغم من اختلاف العناصر القومية لشعوبها، وعليه ندرك أنّ مضمون مصطلح الشرق الأوسط منذ إطلاقه كان سياسيا الغرض منه نسف كلمة الشرق الإسلامي منه أو الوطن العربي لتفادي الصراع بين النزعة أو الروح الإسلامية مع الغرب الصليبي والوحدة العربية كما يسميها القوميون العرب، وبذلك فمن الواضح أنّ الهدف من إطلاق مصطلح الشرق الأوسط هو إبعاد الشعوب العربية على إطلاق تسمية البلاد العربية أو الإسلامية أو المنطقة العربية على بلادهم، وبالتالي القضاء على كلّ ما للبعد الجغرافي من صلة مع الإسلام أو القومية العربية، وبالضرورة تشتيت الأمّة العربية والإسلامية، وقد أخذ هذا المفهوم ذلك المنحى خاصّة مع الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية الفلسطينية عام1948، حيث عملت منذ هذا التاريخ الإدارات الأمريكية والصهيونية كلَّ ما في وسعها من أجل تثبيت وصف المنطقة بمفهوم الشرق الأوسط لتجريدها من جانبها الروحي الإسلامي العربي، وهذا يعتبر تضليلا وتزويرًا مصطلحيا يهدف إلى تزوير الحقيقة التاريخية والحضارية للشعبين الفلسطيني والإسرائيلي(38).

ومهما دلّت الصيغة اللغوية لمصطلح الشرق الأوسط الجديد أو[الكبير] فإنّ مفهومه العملي هو الذي يثير إشكالاً أكثر لأنّه يتعلّق بقضية تقسيم للمنطقة التي تنام على مخزون هائل من البترول من جهة، ووجود الكيان الصهيوني بها من جهة أخرى، والذي لا بدّ في المنظور الأمريكي خاصّة أن يكون هو الأقوى بين الدول العربية، ولعلّ احتياطات النفط في البلاد العربية وخاصّة بالخليج والمشرق العربيين وبحر قزوين، والثروات الباطنية بأفغانستان التي تسيل اللعاب وتستهوي الأطماع وموقع هذه الأخيرة الاستراتيجي من روسيا وغيرها كانت من بين الأسباب أيضًا في إطلاق مصطلح الشرق الأوسط الجديد أو[الكبير] وكانت إحدى محطّاته الكبرى حربي أفغانستان والخليج[على العراق] واحتلالهما، ولعلّ توظيف الولايات المتحدة الأمريكية لترسانة من المصطلحات الخاصّة بحرب الخليج مثلا: زوبعة الصحراء الحرب الاستباقية، الحرب القذرة، تحقيق حقوق الإنسان، وإقامة الديمقراطية...، خير مثال على ذلك، وهذا يطرح أكثر من تساؤل: هل الديمقراطية تأتي بالقنابل العنقودية والقنابل الذكية وطائرات بِ52 وسقوط القتلى والجرحى وهلّم جرا؟

2-أحداث الحادي عشر سبتمبر 2001: غموض المصطلح وخلفيات توظيفه

لم يستسغ بعض الباحثين والنقاد السياسيين سيناريو وفكرة قيام الجماعات أو الحركات الإسلامية وتنظيم القاعدة بزعامة أسامة بلادن-وهو على ظهر بغلة في جبال طورابورا- خصوصا بالتخطيط الدقيق جدّا وهذه اللوجيستية غير المعهودة وشديدة التنظيم والتعقيد لتفجير البرجين الأمريكيين ومبنى البنتغون أو ما أصبح يُطلق عليه في الأدبيات السياسية والصحفية والأمنية مصطلح أحداث الحادي عشر سبتمبر 2001، حيث ذهبوا إلى أبعد من ذلك بكثير وهو الاتهام المباشر لكلّ من الولايات المتحدة الأمريكية وحليفتها إسرائيل بضلوعهما في العملية خاصّة في جانبها التخطيطي واللوجيستي، وترك عملية التنفيذ لمتطرّفين إسلاميين سواء كانوا على علم بمخطّطيها ومدبّريها أم على جهل، كلّ ذلك من أجل فرض الغطرسة والسيطرة الأمريكية على العالم وخاصّة على موارده وثرواته النفطية حيث كانت تلك العملية جزءً من سلسلة لمخطّطات أخرى في شتّى مناطق العالم لخدمة مصالحها ومصالح إسرائيل(39).

ويَعتبِرُ محمّد أحمد النابلسي صياغة وتوظيف الولايات المتحدة الأمريكية لمثل هذه المصطلحات حذاقةً فائقة وقدرة كبيرة على نحت المصطلحات وتوظيفها سياسيا ومخابراتيا لخدمة مصالحها ومشاريعها خاصّة في الشرق الأوسط، ممّا يجعلنا نستشعر بأنّها أثارت عن قصد موجة النهايات تمهيدا وإعدادا لفرض فوضى مصطلحية كما تشير كلّ الدلائل ومن بين أشهر تلك المصطلحات التي صاغتها ثمّ وظّفتها في ظروف معيّنة ثمّ تخلّت عنها مصطلح العولمة(40) بعد أن تخلّت عن مصطلحات أخرى كصدام الحضارات ونهاية التاريخ وغيرها كثير.

كما أنّ معرفتنا بالولايات المتحدة تجعلنا نتّفق على أنّ المخابرات الأمريكية لم تكن عاجزة تماما عن فبركة الحجج والأدلّة المزيّفة التي تدين العرب والمسلمين في أحداث 11سبتمبر 2001، والدليل على ذلك تجربتها مع العراق الذي خلقت له أدلّة واهية على امتلاك أسلحة الدمار الشامل -التي لم توجد أصلا-لإسقاط نظام صدام حسين الذي نعت بالشرير واحتلال العراق، ومن هنا خلق عدو وهمي للغرب هو المسلمون، فخلق لنا الغرب مصطلحًا آخر لا يقل أهمية عن مصطلح أحداث الحادي عشر سبتمبر 2001 ألا وهو

مصطلح الإسلاموفوبيا، الذي وظّف في وسائل الإعلام الغربية بقوّة وشراسة وبطريقة تجعل الإسلام والمسلمين شبحًا داهمًا للغرب، فكان من نتائج هذا التوظيف حالة احتقانٍ كبيرة بين المسلمين والغرب أدّت إلى سقوط عشرات آلاف القتلى واحتلال دول وإسقاط أنظمتها بمجرّد أدلة واهمية اعتمدت على الشكوك والشائعات، ولم يتوقّف الأمر عند تلك الدول بل إنّ التهديد وتنفيذ المخطّط بنفس الذرائع والشكوك لا زال قائما ومستمرا، ويبرز ذلك في خطورة توظيف مصطلح الإسلاموفوبيا في كلّ بقية الدول الإسلامية منها تحديدا السعودية وإيران وإندونيسيا"[41] وفلسطين مع حركة حماس التي أصبحت الجلاّدَ وإسرائيلُ الضحيةَ، ومثل هذه الممارسات هي دافع قوي لخلق ما يسميه العالم الغربي أيضًا بالأصوليات الإسلامية "حيث من الثابت أنّ المصدر الأساسي لكلّ أصولية اليوم هو قمع واضطهاد هوية متّحدها ثقافتها، أو دينها"[42].

إنّ بغض النظر عمّا أحدثته أحداث الحادي عشر سبتمبر 2001، من بشاعة المناظر والخسائر الكبيرة في الأرواح والممتلكات فإنّ توظيف هذا المصطلح (أحداث الحادي عشر سبتمبر) أو ما اصطلح عليه أيضا بأحداث الثلاثاء الأسود أثار رعبًا وزوبعة إعلامية مدوية في أمريكا والعالم، جعلت الأمريكيين خصوصا والعالم عموما يعيش حالة من الرعب من الإسلام وهذا ما جعل مسرح الأحداث يتعقّد أكثر فأكثر على المسلمين القاطنين في أمريكا وغيرها من بلدان العالم الغربي، حيث عرفوا موجة من الاعتداءات والقتل أحيانا والتمييز العنصري والتهديدات، غير أنّ هذا يعني استسلاما كليا لكلّ الأمريكيين للانجرار وراء ما خلّفه المصطلح من آثار سلبية في نفوس الناس واستغلال الكثير من الصحفيين والكتاب الفرصة للتهجّم على الإسلام والمسلمين ومساندة مساعي الإدارة الأمريكية في حربها على ما أسمته بالإرهاب الإسلاموي.

إنّ خمسين أكاديميا ومفكّرا منهم خبراء عسكريون سابقون شكّلوا منظّمة ترأسها "ستيفن جونس" أطلقوا على أنفسهم اسم" حركة الحقيقة بشأن الحادي عشر من سبتمبر"، لم يتقبّلوا أصلاً الحقيقة والمضمون الذي حمله مصطلح تلك الأحداث، حيث أكّد الدبلوماسي السابق والأستاذ الجامعي "بيتر ديل سكوت" أنّ الشعب الأمريكي وقع في مصيدة التضليل، كما قام الكاتب ديفيد راي "جريفين" بتتبّع ونقد الآراء المختلفة والمتناقضة مثلما وردت في

الرواية الرسمية للدولة الأمريكية فاستخلص بأنّ سلوك الجيش الأمريكي أثناء الأحداث يثبت بما لا يترك مجالا للشكّ تورّط العسكريين في هذه الأحداث–الهجمات–، فطريقة تهديم برجي التجارة والبناية رقم7 تمّ بطريقة احترافية دقيقة وهو التفجير المتحكّم به، إذ تمّ زرع متفجّرات بشكلٍ مضبوط في جميع أرجاء المباني(43)، وهذا ما يثبت شكّا واضحًا لجل المفكرين الأمريكيين المنتمين إلى هذه المنظمة في الرواية الرسمية الأمريكية، بل واعتبروها زائفة كما ورد في كتاب"الحادي عشر من سبتمبر والإمبراطورية الأميركية"، وهو من تأليف أحد عشر كاتبًا من أعضاء المنظّمة السالفة الذكر، وقد استدلّ في ذلك مُحَرِّرَا الكتاب ديفيد راي جريفين وبيتر ديل سكوت على أدلّة تثبت زيف الرواية الرسمية خاصّة فيما يخص المسؤول الحقيقي عن تلك الهجمات والتي اتخذت شعارا وذريعة للحرب العالمية على الإرهاب، فكان كلٌّ من أفغانستان والعراق ضحية مباشرة لها(44).

فمن خلال دراسة قام بها الباحث "إستبرق فؤاد وحيد" حول المعالجة الإعلامية للاحتلال الأمريكي للعراق، وذلك بتحليل مضمون مجلّة نيوزويك –النسخة العربية– وجد أنّ الكثير من المصطلحات الواردة في المجلّة تختلف مفاهيمها بين الولايات المتحدة والعالم الغربي عمومًا، والعالم العربي خصوصًا، لهذا كان من أهم توصياته أن تعمل مراكز البحوث والدراسات الأكاديمية العربية على إيجاد مصطلحات عربية وتفسيراتها للعديد من المصطلحات الواردة في وسائل الإعلام الأمريكية ويتمّ نقلها عن طريق وسائل الإعلام العربية رغم اختلاف التفسيرات بين المفهوم الأمريكي والمفهوم العربي لها(45).

الخاتمة:

إنّ صياغة ووضع المصطلحات واستعمالها لم يعد من وظائف علماء اللسان وعلماء المصطلحية فحسب، بل إنّ الواقع السياسي العالمي بكل ما يحمل من تناقضات ومفارقات كما رأينا في حربي الخليج الثانية والثالثة وأحداث الحادي عشر سبتمبر 2001 قد أظهر أنّ عوامل أخرى كثيرة جدًّا قد تكون: سياسية، عسكرية، أمنية، اجتماعية، نفسية، قانونية... تُسهم إسهامًا منقطع النضير في إنتاج عددٍ كبيرٍ من المصطلحات التي تعبّر عن السياق العام الذي وردت فيه من جهة، وهي مرآة عاكسة لمختلف التغيّرات التي يشهدها العالم من جهة أخرى.

وإنّ المعركة السياسية والعسكرية اليوم هي معركة مصطلحات ولهذا رأينا أنّ دلالة ومضامين تلك المصطلحات هي من إنتاج أقوياء دول هذا العالم وفرضها على العالم العربي والإسلامي بقوّة، حيث أصبح عالم اللسان خارج دائرة الصياغة[وضع المصطلحات]، ممّا صعب عليه مجاراة حتّى الحركية المصطلحية الهائلة التي تنتج جراء الأحداث العالمية المتسارعة في ظلّ فقدانه للوسائل والآليات اللسانية والمادية التي تمكنه من تتبّع كلّ الأحداث ورصد مصطلحاتها، وما عليه إلاّ أن يأخذ معاني ومضامين بعض تلك المصطلحات كما هي–المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب كما ذكر ابن خلدون–، أو يُحاول إضفاء عليها لمسة خاصّة به، أو نقدها في أحسن الأحوال، أو تقديمها في أكملِ وجهٍ بحسب قناعاته الشخصية وثقافته وحضارته الخاصّة...

الهوامش والمراجع المعتمدة

(1) نعوم تشومسكي، طموحات إمبريالية، ترجمة عمر الأيوبي، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، 2006، ص10.

(2) عبد الوهاب المسيري، في الخطاب المصطلح الصهيوني، دراسة نظرية وتطبيقية، دار الشروق، الطبعة الثانية 1426هـ–2005م، ص24.

(3) المرجع نفسه، ص66–67.

(4) عبد الوهاب المسيري، المرجع السابق، ص243.

(5) المرجع نفسه، ص25.

(6) علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة المملكة العربية السعودية، 1403هـ/1983م، ص14.

(7) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص25.

(8) إستبرق فؤاد وحيد، المعالجة الإعلامية للاحتلال الأمريكي للعراق تحليل مضمون مجلّة نيوزويك–النسخة العربية–، رسالة قدّمت استكمالا للحصول على درجة الماجستير في الإعلام، جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا، كلية الإعلام، الأردن تشرين الثاني 2009 ص11.

(9) المرجع نفسه، ص25.

(10) مجموعة من المؤلفين، بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، ملخّصات كتب المعهد الفكرية، الجزء1، تقديم د.عبد الناصر زكي العساسي، مركز الدراسات المعرفية الزمالك، القاهرة 1432هـ-2011م، ص11.

(11) فاتح صالح محمود اللهيبي، إشكالية الخوف من الإسلام Islamophobia بين الرؤية الغربية والواقع الإسلامي، دار النهج، ط1، حلب، 1430هـ-2009م، ص15.

(12) عادل المعلّم، مقدّمة في الأصولية المسيحية في أمريكا والرئيس الذي استدعاء الله وانتخبه الشعب الأمريكي مرتين، مكتبة الشروق الدولية، ط3، أبريل 2005 ص40.

(13) محمد محمد داود، اللغة والسياسة في عالم ما بعد 11سبتمبر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2003، ص ص26-32.

(14) محمّد محمّد داود، المرجع السابق، ص 32.

(15) فاتح صالح محمود اللهيبي، المرجع السابق، ص20.

(16) معتز الخطيب، الغضب الإسلامي-تفكيك العنف: دراسة نقدية-، دار الفكر دمشق سورية 2007، ص127.

(17) معتز الخطيب، الغضب الإسلامي-تفكيك العنف: دراسة نقدية-، دار الفكر دمشق سورية 2007، ص127.

(18) Alain Accordo-Phillipe Corcuff, La sociologie de Bourdieu, Textes choisis et commentés, Illustrée par Christian Gasset, Editions Le Mascart Bordeaux, France 1986, p44.

(19) نعوم تشومسكي، 11-9، تعريب إبراهيم محمد إبراهيم، مكتبة الشروق الدولية الطبعة الأولى، القاهرة 2002، ص 29.

(20) يوريس لونديك، بشر مثلنا، تحريف الحقائق في الشرق الأوسط، الدار العربية للعلوم ناشرون، ترجمة حسان البستاني، ط1، 1431هـ/ 2010م، بيروت لبنان ص105-106.

(21) محمّد أحمد النابلسي، في مواجهة الأمركة، الطبعة الأولى، دار الفكر رجب 1425هـ/ أيلول [سبتمبر]، 2004م، ص149.

(22) إستبرق فؤاد وحيد، المرجع السابق، ص6.

(23) محمّد عبد الحليم أبو غزالة، الولايات المتحدة، العراق والدمار الشامل، دار المعارف القاهرة، مصر 2004، ص98.

(24) محمّد حسنين هيكل، الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق، دار الشروق الطبعة الأولى، القاهرة 2003 ص376.

(25) باسل يوسف النيرب، الإعلام الإسرائيلي ذراع الجلاّد، الطبعة الأولى، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض 1431هـ-2010م، ص25-34.

(26) طويل نصيرة، التدخّل الإنساني: دراسة حالة العراق، مذكرة لنيل درجة الماجستير في الحقوق، فرع: القانون الدولي والعلاقات الدولية، كلية الحقوق- بن عكنون-، جامعة الجزائر، الجزائر 2002/2001، ابتداءً من ص80.

(27) يوسف العاصي الطويل، حملات بوش الصليبية على العالم الإسلامي مقالات عن مخطّطات جورج بوش وحملاته ضد العالم الإسلامي، صوت القلم العربي الطبعة الثانية، مصر 1421هـ-2010م، ص25.

(28) خليل اقطيني، مشروع الشرق الأوسط الجديد، لماذا لبنان أوّلا؟، الطبعة الأولى، سورية، 2007م، ص33.

(29) فاروق حسني، وثائق حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 وتداعياتها مطابع المجلس الأعلى للآثار، القاهرة 2002، ص13.

(30) Petit Larousse grand format, Librairie Larousse, Paris2004 p677.

(31) الهادي الحسين شبيلي، في مواجهة تحديات خطاب العولمة، دراسات في الشأن الإسلامي، كتاب دوري يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، مكّة المكرّمة، المملكة العربية السعودية، ذو الحجة1429هـ/ديسمبر 2008م، ص386.

(32) محمّد محمّد داود، المرجع السابق، ص25-26.

(33) إستبرق فؤاد وحيد، المرجع السابق، ص5.

(34) يوسف العاصي الطويل، المرجع السابق، ص126.

(35) رمزي المنياوي، الفوضى الخلاّقة..الربيع العربي بين الثورة والفوضى السيناريو الأمريكي لتفتيت الشرق الأوسط والنظرية الصهيونية التي تبنتها أمريكا لشرذمته!! دار الكتاب العربي، دمشق–القاهرة، الطبعة الأولى 2012، ص9.

(36) محمّد أحمد النابلسي، المرجع السابق، ص106.

(37) محمّد أحمد النابلسي، المرجع السابق، ص19.

(38) محمّد أحمد النابلسي، أوهام مشروع الشرق الأوسط الكبير، الطبعة الأولى، دار الفكر دمشق 2007، ص18.

(39) سمير صارم، إنّه النّفط يا[..]!! الأبعاد النفطية في الحرب الأمريكية على العراق، دار الفكر، ط1، دمشق، سورية، ذو الحجة 1423هـ/[فبراير] 2003م ص11.

(40) محمّد أحمد النابلسي، في مواجهة الأمركة، المرجع السابق، ص139–140.

(41) المرجع نفسه، ص148.

(42) روجيه غارودي، الأصوليات المعاصرة أسبابها ومظاهرها، دار عام ألفين، الطبعة الأولى، باريس 1992، ص59.

(43) يوسف العاصي الطويل، المرجع السابق، ص206.

(44) يوسف العاصي الطويل، المرجع السابق، ص 202–203.

(45) إستبرق فؤاد وحيد، المرجع السابق، ص: ك–ل.